

# الباب التاسع

## شخصيات ديكنز

لو تأملنا قليلا بعد فراغنا من قراءة روايات ديكنز لوجدنا أن الذاكرة تجمع عددا لا يحصى من الشخصيات التي استطاع المؤلف أن يخلقها لكي تستولى على عقولنا، وتأخذ بالبابنا بسحرها وجمالها . ان ديكنز كان يهتم بشخصياته أكثر من اهتمامه بالموضوع أو بحوادث الرواية . إن الرواية خلقت للأشخاص ، فنجدهم لا يكفونوا عن الحديث أو الحركة أو ربما نجد أنه من السهل أن ننقد هذه الشخصيات ولكن من الصعب أن نخلقنا خاصة مثل البراعة الفائقة التي أظهرها ديكنز في خلق شخصيات رواياته، وحتى لو استطعنا أن نسرق هؤلاء الأشخاص فان ديكنز يستطيع أن ينتج مئات منهم . نشعر بأن شخصيات ديكنز تظهر لنا كأنها شخصيات تربة لعالم أعلى واسمى من عالمنا الأرضي فهو يخلقهم لنا ولكنه لا يطمح في ذكرهم سيموتون في مجرى حوادث الرواية بل إنهم سيظلوا يعيشون إلى الأبد حتى بعد أن تنتهي من قراءة الرواية . ان ديكنز ينجح نجاحا عظيما في اظهار شخصياته الهزلية في مواقف مثيرة للضحك وأما حين يظهرهم في مواقف جدية فان اهتمامنا بهم يضعف إذ انه لا ينجح في ذلك .

اختلف ديكنز عن جورج اليوت بأنه لم يدخل في رواياته تحليلات سيكولوجيا لأشخاص قصصه ، الشيء الذي يعوق مجرى الحوادث في روايات اليوت والتي تخلو منه روايات ديكنز مع أنه يصف مظاهر شخصاه

وصفا دقيقا الا أن لكل شخص حركة خاصة أو طريقة مختلفة في الحديث تمزجه عن غيره فيأخذ المؤلف في تكرارها حتى أنها تصبح أهم ميزة للشخص تذكرنا به ..

ان من الأخطاء التي يثرأخذ عليها ديكنز هي أنه يظهر لنا أشخاصه من ناحية واحدة فلا نعرفهم حق المعرفة ولكننا نجد أن في الحياة ذاتها لا يستطيع الانسان أن يعرف غيره تماما لأن الانسان في وسعه أن يتظاهر بمظهر مختلف عما يتظاهر به أمام غيرنا ، وأيضا نجد أن في روايات ديكنز قليلا ما يتغير الانسان منذ ظهوره في أول الرواية الى آخر الكتاب وأحيانا يحدث التغيير بطريقة لا تهمنا كثيرا لكي يعطى المؤلف فرصة الوصول الى خاتمة معينة .

لقد قيل أن ديكنز يعتبر رساما كاريكاتوريا ، ولكنه في ذلك يبنى شخصياته على الحقيقة ثم يمزجها بخياله فتكون النتيجة أن يقدمنا الى شخصيات لها اطوار غريبة أو مميزات شاذة ، زها عن الأفراد العاديين . إننا نعجب بتلك الشخصيات إلا أن ديكنز استطاع أن يخلق أشخاصا روائيين هم أشخاص عرفهم المؤلف في حياته واستطاع أن يستخدمهم في كتبه وأنه من واجب الروائي الا يخلق أشخاصا مطابقين للواقع وإنما يتخذ الواقع ويستخدم خياله في خلق تلك الشخصيات التي تمتاز بطابعها الخاص .

يمتاز ديكنز عن غيره بأنه استطاع ان يصور كثيرا من الشخصيات المختلفة في كتبه ولو أنه أحيانا ما يتشابه بعضها مع بعض إلا أن كلا من أشخاص كتبه له طابعه الخاص فنجد في رواياته الطبقات الارستقراطية كما نجد الطبقات الفقيرة والمتوسطة ممثلة في شخصياته إلا أن ديكنز بالنسبة لأنه

عاش قريبا بين الطبقات الفقيرة ووقف على أحوالها فهو يحسن وصفها أكثر من غيره .

لم يحب ديكنز الأثنياء ولم يحاول فهمهم ولذا فهو لا يحسن تقديمهم لنا وأما الطبقات الفقيرة فقد استولت على كل مشاعره لما كانوا يعانونه من فقر وبؤس وآلام أراد تخليصهم منها برائع آيات قلبه وقد اهتم بالمجرمين والأشقياء وتأثيرهم على المجتمع ولكن أهم من ذلك فقد نجح في وصف الأسباب التي دعت الى وجود مثل هؤلاء الأشقياء فمثلا يعجب القارى بأمثال سيكس وفاجن وغيرهم .

يقول ديكنز في كتابه « صديقنا الذى يبادلنا الصداقة » لو كان المجرمون المشهورون يخبروننا بالحقيقة مع العلم بأنهم لن يستطيعوا ذلك لكونهم من كبار المجرمين — فإنهم نادرا ما يطلعوننا على مجهوداتهم للابتعاد عن الجريمة انهم يجاهدون نحو الجريمة بكل قواهم »

ان بعض هذه الأشخاص لا يظهرون لنا كأئهم اشخاص واقعين ولكنهم بالنسبة لديكنز حقيقيون فهو يشاركهم فى بكائهم كما يشاركهم فى أفراحهم . لقد قيل ان شخصية « مسز جامب » « وسام ولليروتونى وللر يمثلا روح الخيال وانهم مفخرة من مفاخر الكوميديا الواقعية التى أبعدها كل الصفات التى تشوب الأشخاص الواقعيين

ان ديكنز فى تصوير أشخاصه يبرهن على قوة الملاحظة للجمهور . لقد ترك لنا فى كتابته تصويرا لأشخاص على حقيقتهم يوجدون اليوم فى أماكن من المعمورة لم ينعموا بالتعليم أو التهذيب . ولكنهم يمتلئون ذكاه فطريا وفكاهة موهوبة . كان ديكنز يسير فى طريقه ينظر الى الجمهور فى غرابة

الحياة فى الاشخاص الذين يسىرون فى طريقه ولو نظرنا ذات يوم الى المئات  
التي تسير فى الطرقات فتنأ نستطيع ان نجد بينهم كثيرا من الشخصيات التي  
أدخلها فى كتيبة

يوجد فى روايات ديكنز عدد من الشخصيات المختلفة فنرى كل نوع  
من الأشخاص وكل يحتل نفس المركز الذي يحتله فى حياته اليومية وأحيانا  
توجد الشخصية لذاتها وهى لا تقوم بأى عمل مهم بالنسبة للرواية. فمثلا مسز  
جامب لو أبعدت من كتاب « مارتين شلويت » فان حوادث الرواية لا تتأثر  
من جراء ذلك وإنما مسز جامت هى شخصية مهمة لأنها تعجبنا بمزاجها وتفكيرها  
الساذج وحركاتها فهى تعجبنا وتحبب الانسان فى قراءة المواضيع التي تظهر  
فيها أكثر من مرة، فاذا نسينا الرواية كلها فنحن لا يمكن أن ننسى مسز جامب  
والمستر ميكوبر فى رواية دافيد كوبر فيلد الذي يحتل نفس المكانة التي تحتلها  
مسز جامب، ونستطيع على سبيل المثال أن نذكر كثيرا من الشخصيات التي  
يذكرها الانسان حتى لو نسي كل شيء آخر. وبعض شخصيات ديكنز التي  
تحوز اعجاب القارىء لا تظهر كثيرا فى الكتاب ولكننا مع ذلك نذكرها  
على الدوام والسبب فى ذلك هو أن هذه الشخصيات أجاد ديكنز تصويرها  
على طبقته مضافا الى ذلك طريقته الكاريكاتورية التي كانت تزيدها جمالا.

ان العالم لو طلب منه أن يذكر الشخصيات الروائية التي حازت اعجابه  
فانه سينذكر على رأسهم مسز جامب، وميكوبر وسام ولر ومستر بيكوبك  
وشارباند ومئات آخرين كلها مأخوذة من كتب ديكنز الخالدة التي لا تزال  
تحدث والتي لن تزول من ذاكرة الانسان لأنها تعبر عن صميم الحياة وتشهد  
بعبقية فذة ..

عاش ديكنز وترعرع وسط الاحياء الفقير ووقف على

أسرار أهلها وشاركهم عواطفهم التي جعلته يحارب من أجلهم إلى أن  
جاءه النصر . وبقائه حينئذ استطاع أن يخلق شخصيات خالدة  
ستظل على وجه الأرض لأجل إسعاد البشر ومهما قدم العهد على المشاكل  
الاجتماعية التي حارب ديكنز من أجلها فإن تلك الكتب ستقرأها الأجيال  
القادمة فتجد ذكرى ذلك الكاتب الاجتماعي العظيم الذي خلق شخصيات كانت  
على مر الدهور مصدر سعادة وهناء لملايين من الناس في جميع بقاع الأرض من  
غير مغالاة ...